
ساحر الكتب
تشويش
نقطة تلاقي الحاضر بالماضي
أحمد حمدي محمد


ساحر الكتب


ساحر الكتب



إهداء

لكي انتي يا من تحتويني منذ زمن

يا من تحارب من أجل المكوث معي أطول وقت ممكن

يا من قتلت بي كل خبيث

أهديكي ذلك خصيصا لكي

ش . ي

لعائلتي الحبيبة

لأصدقائي الأعزاء

لكل قاريء يعطيني بعض من وقته ليقرأ لي مشروعي الأدبي الصغير

الذي بدأ بالمجموعة القصصية "زومبي"

وسيستمر بكم



إهداء لذلك الشخص الذي حكى لي قصته

مطالبا ببوح الكثير من تفاصيل معقدة في حياته

لعل ذكراه ستخلد هنا.. وفي ذكرى كل من قرأ تلك القصة

ولكن لكي أكون ناصفا بأنها لم تكن قصة واحدة بل أكثر من قصة تتشابه في الخطوط الرئيسية

أمتزجت ببعض أنسجة خيالي لتخرج لنا ذلك البطل التي تعتبر قصته هي الأم

والتي بنيت عليها كل ذلك.

أشكرك أيها الغريب لتلك المحادثة اللطيفة التي أخرجت الكلمات من عقلي

كما تخرج طلقات العدو بلا رحمة

ستشعرون ببعض التلقائية في الكتابة

ستشعرون وكأنكم تعيشون بداخل القصة فعليا لأنها خرجت من داخلي كل كلمة شعرت بها كتبتها، كل ما شعر به وقرأته في تلك المذكرة التي كانت في يده أخرجتها وأحيانا كنت انقل بعض التشبيهات لأني لم أجد تعبير أفضل من ذلك التعبير الذي شعر به.

اللغة بالنسبة لي مجرد رموز للتواصل ليست أكثر أو أقل، ولكن مكانتها تزداد عندما تخرج معبرة عما بداخلنا.

وأرجو ان تنال إعجابك

وأعلم جيدا بأنك ستقرأها ....

"أسير مهما أسير فسكون دائما بلا درب، بلا هدف، بلا رؤية.. فاقد الحياة.. فاقد السبيل.. فاقد الغاية.. لا أعلم إن كنت درويش أم مجذوب.. صالح أم فاسد.. شجاع أم جبان.. خاسر أم فائز.. حر أم مقيد.. سجين أم طليق..الرؤية مشوشة.. لا أرى بوضوح.. كل شيء أشعر به لا أفهمه.. كل شيء وعكسه في ذات الوقت.. ولكن ما أعلمه إني مازلت أعيش في ذكرى الماضي ولا أريد الحاضر أو المستقبل لأني لا أتذكر سواه اللعنة على الزهايمر."

كلمات أخيرة كتبت يوم 2017/6/24



خيط بسيط يجمع بين الحياة والموت يسمى العمر، كل شيء يسير وفق نسق زمني موضوع منذ بداية الخليقة، كل ما نستطيع تغيره هو أختيارتنا وأفعالنا، ضيقة الأفق، وكل ما نفعله لن يذهب في فضاء الكون الشاسع، بل سيعود مجددا ليعيد لنا كل ما فعلناه.

إننا نعيش بقانون لكل فعل رد فعل، إنه ليس قانون فيزيائي بل قانون إلهي تم وضعه قبل خلق أدم، لا نعيش سوى أن نفعل وننتظر رد الفعل الذي سيكون مساويا له في القوة، والجرح، أو السعادة لا يهم نوع ما سيرد ولكن الأهم بأنه سيرد لك يوما وقد يكون في أكثر الأوقات غير المتوقعة.

لا يوجد سبيل للهروب منه، لا وجود للمخرج الأمن، لا وجود لباب الطواريء، ولا يوجد درب أسواء مما أخترت فلم أعد سوى نصف درويش، نصف تائب، نصف عاصي، نصف إنسان.

****

يؤذن العصر في الجامع بصوته الأجش، يزعج المارة والنائمين ولولا أنه يذكرهم بالله لكانوا أعتبروا ذلك إزعاجا، يقف داخل المحراب بذاك البنطال الواسع وقميصه الأوسع الذي يخفي به بطنه البارزة.

يدخل الوافدين إلى المسجد بينما يتوضأ ويقف داخل المحراب ليصلي ويتمتم بكلمات لا تفهمها حتى إذا وضعت أذنك بداخل فمه، ثم يأم هؤلاء الوافدين الأقلة القانطين بالحي وعندما تنتهي الصلاة يذهب لأحدهم ليعطيه المفتاح، ثم يخرج مسرعا راكبا لأحد سيارات الأجرة ذاهبا للمترو حتى يصل لهناك شارد الذهن تائه في دربه وكأنه درويش ولكنه لم يكن يوما درويشا ولن يكن.

وعندما بدأ القطار في التحرك وكان جالسا بجانب أحد النوافذ بدأ شريط سينيمائي بالعمل يعرض كل ذكرياته ذكرى تلو الخرى دون انقطاع، منذ أول صرخة له عندما أخرجته الداية من جوف أمه، حتى كبر وأصبح صاحب أكبر ورشة لصناعة البراويز في وسط البلد إلى أن أصبح خادم مسجد يبعد عن بيته عشرات الكيلو مترات.

شريط الذكريات بدأ في الدوران ولا يستطيع أحد ايقافه وكأنه في لحظاته الأخيرة، كل شيء مسجل به، كل كلمة، وقرار، وفعل، ولمسه، وهمسه، ونظرة.

كأنه يجلس داخل سينما مهجورة يعمل بداخلها فيلما عتيق، ترى أحيانا الصورة ضبابيه، وأحيانا أخرى أكثر وضوحا من الحقيقة.

*****

صلاة الفجر تؤذن وهو يسير إلى منزله غير متزن يضحك بطريقة هيسترية ذات صوت عالي يتردد بسبب هدوء الليل، ولا يرد على صداه سوى نباح الكلاب، يشعر وكأن الحارة ترقص معه، يدور حول نفسه ممسكا بسراب لا يراه سواه، ويتماسك في اللحظة الأخيرة قبل ان يسقط فتزداد ضحكته رنينا.

يهمس للقطط الا تخرج موائها، وكأنه يخاف أن يراه احدهم، مترنح يمينا يسارا صاعدا لمنزله، وعندما يصل للشقة بحث عن المفتاح في جيوبه حتى يجده ويمسكه ويضعه في الفوهة ويدفع الباب برفق حتى لا يصدر صريره المعتاد المزعج لكي لا ييقظ هؤلاء النيام.



ولكن ما يوقفه صوت همهمة والدته التي كانت تصلي يهرول لغرفته ليخلع ملابسه بأسرع ما يمكن حتى لا يسمع كلمات تأنيب الضمير التي تلقيها عليه والدته منذ أن بدأ سهراته الليلية، ويلقي بجسده الثقيل على الأريكة تاركا ورائه كل همومه التي كان يهرب منها في تلك اللحظة لينام.

*****

يفتح باب محل كبير به كراكيب كثيرة والأثاث الخرب، وكأنه يقف أمام أطلال وليس مكان سيحوله من خراب لورشة ستصنع له مستقبل، يربط على كتفه خاله قائلا:

- بص أنا كده كده مش مستنفع بيها بس خلي بالك منها
- يا خالي انا كان نفسي أخد فرصة علشان أبين موهبتي وأنا متأكد إن البراويز بتاعتي هتكسر الدنيا
- طيب ربنا يكرمك وعموما لما يكون معاك فلوس يبقا جبلي الإيجار ومتجيش على نفسك، كفاية أنك مسئول عن كوم بنات
- طبعا يا خالي

يتركه خاله أمام حلمه الذي يتحقق فتلك هي أول خطوات الألف ميل، أول درجه من سلم المجد، أول خطوة في درب الحلم الأكبر مصنع البراويز، وكل ذلك سيكون بدايته إزالة وتنظيف الكراكيب.

يخلع قميصه ليظهر جسد متناسق قوي الساعدين يزيل الكراكيب وينظف المحل ويضع الالاته ولكن كل ذلك اخذ فترة من الزمن غير منتبه بأن هناك من ينظر عليه من وراء النافذة.

ولكن كل ما يجول في خاطره بأنه لن يستسلم وإن تشققت يداه من العمل، وإن ظمأ، وإن أرهق لدرجة لإغماء، فليخرج ذلك الوحش العنيد الذي يأبى الفشل، ليخرج قوته ويقاتل ألد أعدائه الفشل.

لن يكون للفشل محل من إعراب داخل حياته، سيكون دوما رمزا للنجاح في حارته.

****

يستيقظ على صوت آذان الظهر، يحك بطنه البارزة، ينظر للسقف وينطلق بخياله عبر فضاء الغرفة في حين تدخل امه غاضبة ملقية على المنضدة بجانبه بضعة قروش.

ينظر لها بتعجب ودهشة ولكنها تقاطعه بادئة الحديث قائلة:

- إيه ده ؟
- إيه ؟
- ده ايه ده
- فلوس فلوس يعني هيكون ايه ؟
- جميل !! إنت عارف إن مصروف البيت عمال يتقل يوم عن يوم
- طب وانا اعمل ايه الشغل واقف والفلوس كلها في السوق
- لا انت اللي بقيت تسهر للفجر وتنام للعصاري
- طيب وسعي بقا علشان انزل بدري اهو في الطهر



- يا حبيبي حرام عليك دانت كنت كسيب، وخالك عمال يبعت على الايجار وده تالت شهر عليك
- طب اعمل ايه يعني اضرب الارض تجيب بطيخ
- لاه بطل اللي بتشربه الافيون ولا الحشيش
- لاه مانتي مش عارفة دول اللي بيخلوني قادر اتحمل قرف الشغل
- انت مش شايف بقا شكلك عامل ايه شوف حالك
- مالي ؟ مانا كويس اهو وزي البومب.. بصي انا قايم علشان زهقت ومش فاطر معاكم

يدخل الحمام ليستحم ويرتدي ملابسه وينزل على الورشة، يخرج من جيبه علبة حديدية صغيرة، يفتحها ويأخذ منها قطعة صغيرة مما بداخله ويضعها تحت ضرسه ويدخل الورشة.

ليسافر بها إلى عالم أخر دائما يحب أن يسافر فيه، لم يعد ذلك الواقع القميء يرضي غروره، فليعيش أحلامه في الخيال، طائرا في فضاء الكون الشاسع، مفكرا في ليله الذي يطيل عذابه.

*****

صوت عبد الوهاب يخرج من الإذاعة بينما يعمل بلا ملل او كلل، يعمل من أجل هدف واحد، من أجل النجاح.

بعد فترة طويلة إستطاع أخيرا من إخراج الكراكيب وإعداد المحل لتكون ورشة، بدأ يدخل الأخشاب اللازمة للبراويز بعد أن اختارها بعناية شديدة، واعدا أصحاب الأخشاب والمعدات بالأموال في أقرب فرصة ممكنة بعد أن يعمل.

وأن الأموال لن تتوقف والتعامل سيستمر لوقت طويل جدا، ولولا إنه معروف في السوق بأنه ماهر في صناعة البراويز عندما كان صبي فأعطوله كل شيء عن طريق السمعة.

ومن حماسته لم يدخر جهد وحماس بل انه بدأ على الفور العمل أمسك الأخشاب وبدأ العمل مباشرة دون تأخر أو تكاسل، وأصبح يستيقظ فجرا ويرجع بعد العشاء كل ما كان يفعله هو العمل والنوم.

شخص قوي يضع أمامه هدفه ويسعى إليه فيعرف بأن الأهداف والنجاح ليس لديها طرق مختصرة، وكأن البراويز أصبحت سفينته ليصل لجزيرة النجاح، وكان نتيجة لتفانيه في العمل أن ورشته أصبحت مشورة بين أصحاب أكبر محلات البراويز في وسط البلد.

****

يزدحم المترو ويبدأ كل المتواجدين بداخله يشعرون بضيق وعدم القدرة في التنفس جيدا، ويعتبر إنجاز إذا كنت جالس في وقادر على التنفس بشكل طبيعي.

تدخل من الباب فتاة في العشرينيات من عمرها في محطة الجامعة، كانت مشاكسه وجميلة بجانبها شاب في نفس السن يضحكان بشدة، وذلك ما جعل بعضهم يشمئز من صوتهم، والبعض الآخر يحقد في صمت، أم هو كان ذلك يثير مشاعره وذاكرته وكانت مشاعره لم تتحرك من زمن طويل.



يحاول ان يريح عقله فيضع راسه بين يديه وكأن هناك صرخة مكتومة بداخله تريد أن تخرج.

أصوات كل النساء اللاتي عرفهن في شبابه، لمساتهن، أجسادهن، كل شيء يحوم في عقله، غير قادر على إيقاف ذلك، تبا للذكريات التي تمنعنا حتى بأن نعيش بسلام.

*****

يؤذن العصر بينما صوت عدوية يدوي في المكان وهو جالس أمام ورشته خالع قميصه وأمامه شيشه، محاولا إراحة جسده قليلا قبل إستكمال عمله ومفكرا في أن يأتي بصبيان ليساعدوه في صناعة البراويز حيث أصبح العمل صعب وكثير في نفس ذات الوقت، وحلم المصنع يراوده من حين لآخر، ولكن هناك ما كان يشتت أفكاره وعقله، كانت تلك السيدة ذات الجلباب الأسود مفتوح الصدر الذي يظهر ملتقى النهدين، والتي كانت معتادة أن تخرج في وقت العصاري لتنشر ملابسها.

بينما يسحب أنفاسه عن طريق ذاك الأنبوب المربوط بالشيشة وتختلط الكركرة مع عدوية مع صوت المؤذن خليط من العشوائية التي يعيش فيها لا تعبر غير عما يدور بداخله، بينما تسحبه شهوته لأعلى لتدخل بين ثقوب ذلك الشيش.

ولكن لم تتركه صاحبة الشيش يعيش شبقه داخل مخيلاته بل نزلت مرتدية جلباب ضيق يجسم جسدها الممشوق، مكتز المؤخرة والثدي، تقف امام ورشته تنظر له بنظرة مليئة بالجرأة لم يعتادها فأحمر وجهه قليلا فضحكت بصوت عالي ودخلت للورشة تنظر للبراويز وتضع يدها على الأخشاب حتى دخلت شوكة في أحد صوابعها وهو يتبعها إلى داخل فقالت له:

- شفت خشبك عمل فيا ايه ؟
- الخشب وصاحب الخشب فداكي أكسرك الخشب ده علشان ترضي
- لاه انا عايزة بس صاحب الخشب يطلع يقيس الصورة بتاعتي فوق علشان يعملي برواز ليها، اصل بروازها بقا قديم واكسر

يداعب شعره بابتسامة خبيثة قائلا: أعملك أحلى برواز شفته عنيكي.

تضحك وتخرج من الورشة بعد ان تقترب منه وتهمس في أذنه قائلة: "هستناك".

*****

يجلس في العصرية كما اعتاد صوت عدوية ينتشر في المكان، ممسك بأحد البراويز منشغل بيها وكأنه في عالم أخر، يخرجه من ذلك العالم صوت صاحب أحد المحلات التي يتعامل معها: "ما ينفعش معايا الشغل ده"

ينظر إليه بغضب: "هو انت شايفني بلعب انا شغال اهو أنتم همكم بس تكسبوا من ورايا ما يهمش انا تعبان او مش تعبان"

" طب خلاص هدي نفسك هتخلص امتا الكلام ده ؟"

"أديني يومين كده بأذن الله"

"طيب مافيش حاجة جاهزة من الطلبية جاهز حاليا"

"في عشر براويز جوا خدهم"

يدخل الرجل ليأخذ تلك البراويز ولكنه يجد ورائها العديد من البراويز المتحطمة او المليئة بالعيوب وكأنه يفقد سحره تدريجيا بدون أن يشعر سيجد نفسه فاقد لتلك الموهبة، يخرج صاحب المحل مرتبك ومتوتر يفكر على امكانية الوفاء بالطلبية في الوقت المتفق عليه ولذلك قرر ان يساعد لانه مؤمن بموهبته قائلا: "ايه رايك نكبر الورشة وادعمك بالفلوس وانت تشتغل احسن"

ينظر للمطرقة التي بيده وكأنه يرى احد اللصوص يسرقه أنه يعرف بكم يبيع البرواز وانه ما ياخده منه مجرد قروش بسيطة من جنيهات عديدة يكسبها الرجل من الباشاوات الذين يأتون يوميا لشراء تلك البراويز وهل يمكن انه يخطط لسرقة موهبته ؟ تراجع لوهلة عن ضربه بالمطرقة وينظر إليه حتى يبتسم تلك الابتسامة الصفراء ليجد مطرقة من الحديد تطير في وجهة لولا انه تحاشاها لتمر بجانبه ليسمع صوتها ويشعر بهوائها بجانب أذنه اليمنى، يندهش بل يخاف ويكاد ان يقع من وقع الصدمة أكانت تلك المطرقة موجهة لرأسي الآن وانا احاول انتشالك مما انت فيه ؟ هكذا تسأل وهكذا اصطدم.

نظر إليه بغضب قائلا: "انت بقيت مجنون الله يكون في عونك مش عايز حاجة منك واعتبر اتفاقنا لاغي ومشفش وشك تاني قدام المحل علشان بجد همحيك من على وجه الدنيا، ومسمعش انك نزلت وسط البلد علشان مش هيتاخد شغلك ومالكش فلوس مع اي محل وهتشوف"

يهرول مسرعا لسيارته قبل ان يقذف في وجهه اي شيء فأنه تأكد بأنه مجنون، بينما يخرج الاخر علبة ويأخذ قطعة منها وواضعا اياها تحت ضرسه لينتشي وويطير بعقله خارج مما هو فيه ولكنه يغرق اكثر ولا يطير في الواقع.

يجلس على أحد الكراسي محاولا إستيعاب ما حدث، يتسائل عما يتحول إليه ينظر للخراب بخلفه فيكاد يبكي، ينظر ليد فيجدها مرتعشة قليلا، إلي ماذا ستؤدي أفعاله الشيطانية تلك ؟

كل شيء يسير تجاه النهاية.

****

إنها المرة العاشرة التي يغادر بها ذاك لمنزل راجعا لمنزله وكأنه مخدر وكأنه هارب من عملية استئصال احد اعضائه الحيوية، يضع جسده على السرير وكأنها النهاية فينام مقتولا فاقد لكل الطاقات البشرية والحيوية والمعنوية وكأنه اصبح ثقب اسود يجذب الطاقة السلبية في الكون كلها ويدخرها بداخله فلم يعد قادرا على العمل انتهت القصة بالنسبة له.

أصبح يدخر طاقته للمعركة الليلية في تلك الشقة، فلم يعد يعمل سوى من العصرية والمغرب حتى تهدأ الحارة، وتخف الأرجل عن الحركة، حيث الليل الذي يستر كل خفايا البشر، يصعد بعدها ليبدأ معركته الخاصة ومعه في يده كل ما هو غالي ونفسي حتى قلت أمواله وأصبح مرهق غير قادر على فعل شيء.



واصبح يبحث عن شيء يواجه به تلك البالوعة التي تسحب كل شيء منه، لابد من شيء يجدد طاقته فلم يجد سوى الأفيون الذي سيعيد ما يفقده من طاقة، حتى يستطيع مجاراتها ومجاراة عمله الذي اصبح يزداد فيه الطلبيات ولابد ان ينهيها في وقت محدد، وازاد الأمر قوة بالنسبة له عندما أتي له ذاك الرجل ليتعاقد معه لفتح مصنع كبير ويصدر تلك البراويز للسعودية ولبنان والأردن، وان الارباح ستكون خيالية، ولكن عقله لم يكن هنا بل كان مشتت فيما هو قادر فعله في المعركة، ولكن الحق بانه اصبح فائز، ومفعول الافيون جعله لم ينزل من عندها طيلة الليل، وجلس حتى خرج اول ضوء من الشمس على الارض، ونام ولم يستيقظ الا بعد المغرب ليرجع لمنزل والدته.

ومع الوقت قلت الهدايا ولم يعد هناك غالي او نفيس، وذلك جعلها تبدأ في صده شيئا في شيئا، وجعله يكون اكثر خوفا هل الصد بسبب قوته ام من قلة المال وذلك جعله يزيد من جرعات الافيون ولكنها اختفت من حياته تدريجيا، ولم يعد هناك شيء سوى الفشل الذريع واصبح يواجه السقوط من الحافة فلقد سقط منذ زمن ولكنه لم يكن يصدق سوى عندما اقترب من الارض واصبح في انتظار الارتطام بها.

فأصبحت يديه مرتعشة والنوم المتأخر الذي يسببه الأفيون والتي جعلت كل اعماله كسر لا يقبلها احد ولا يمكن بيعها حتى خردة.

****

شمس عمودية تنشر حراراتها القاسية، العرق يتسرب من جباه الماره، هناك من يسقط، العراك ينتشر، كل شيء سيء في تلك لافترة وذلك الوقت، لا أحد قادر على استيعاب شيء سوى العراك بينما يخرج صوت مذياع مرتفع من إحدى السيارات المارة محذرا للمواطنين بالابتعاد عن اشعة الشمس لأنها قد تصيب بفيروس جديد يقتل في الحال.

يسير أمام السيارة رجل عجوز يسير بخطواته البطيئة للغاية فيضغط السائق على بوق التنبيه فلا يوجد اي رد فعل منه يخرج رأسه من النافذة ونعته بأقذر السبة ولكن ذلك لا يحركه سريعا فيفكر بأن يصدمه بالسيارة صدمة بسيطة لعله يسرع ولكنه سقط دون أن يلمسه أحدهم.

يجتمع كل من في الشارع حول ذلك العجوز محاولين معرفه ماذا حدث له، فيضعونه داخل تلك العربة التي كادت ان تدهسه قبل لحظات قليلة ثم يسير لأقرب مشفى.

يمسكوا هاتفه المحمول ويتصلوا باخر رقم ويتبين بأنه رقم أخته.

****

صوت متعالي أمام ورشته يقف غير مبالي امام خاله الذي يقف متحسرا على ابن أخيه الذي يخسر كل شيء بسهولة، ومرة واحدة بدأت النفوس تغضب ويتعالى مستوى الحنق والغضب مما اسفر على شبه عراك وتبادل الفاظ نابية بينهم، مما دخل بعض المارة ليوقفوا شجار كاد أن يحدث.

فالورشة سيأخذها خاله منه ليعطيها لأبنه الذي سيفتحها معمل مخللات، يتركه ويذهب من هنا ويأتي ابن خاله واقفا امام المحل سارحا فيه، كيف سيحول تلك الورشة الممتلئة بالحطب



المتناثر في كل سنتيمتر فيه إلى معمل مخلل يقتحم كل منزل، ويقبع على الأرفف ليزين موائد تلك الحارات القريبة كانت او بعيدة.

وعندما يدخل ليتفحص ما بداخل الورشة يجد ذاك البرواز الجميل، انه من افضل البراويز التي رأها، يأخذه وينظر فيه جيدا ويعتبره جزء من الايجار المتأخر على ابن عمته، بل يتخيل صورة والده بداخل ذاك البرواز كم سيكون جميلا!!

****

كل شيء قد تغير، لا يفعل شيء سوى ان يأكل او يشرب أو يأخذ بعض من الافيون المتبقي حتى انتهى ولم يجد مهربا من الشجار الذي أصبح يحدث بشكل دوري بينه وبين والدته سوى الحسين.

كان معتاد قبل ان يفتتح تلك الورشة بالمكوث فيه احيانا عديدة يقرأ في الكتب الملقية على الأرصفة التي تتحدث عن الجحيم والجنة ولكن كل شيء قد نساه منذ ان حلت رجل تلك السيدة الورشة.

كل شيء أصبح يحدث بشكل جنوني فقد السيطرة على كل شيء لم يجد شيء يحتضنه سوا حرم الحسين، المحراب الذي تاب بداخله الكثيرين، رجع إليه لا يعلم إن كان مستغفرا عن ذنوبه، وتائبا عن معاصيه، لكن ما يعلمه بأن هناك شيء ما يجذبه نحو المحراب.

اشتاق للسلام الذي كان يعيش بداخله يوما ما، اشتاق ان يجد ضالته، توضأ مغتسلا من ذنوبه، مصليا لله، انهمرت بعض الدموع دون ان يعرف السبب، اصابت الرجفه قلبه، انهى الصلاة وهو غير مستوعب عما حدث في تلك اللحظة.

ووسط الصمت المزعج، يظهر رجلا مرتدي جلبابا أبيض يسلم عليه بحرارة وكأنه يعلمه منذ فترة طويلة ثم يفاجئه بذلك السؤال:

- لماذا لم تأتي منذ زمن؟

نظر له بتمعن ومن ثم قال:

- مافيش مشاغل الدنيا شغلتني عن نفسي.
- طيب.. انا متفهم، لو كنت بدور على شغل روح لوزارة الأوقاف عمال للمساجد هتكون بداية جديدة لك وهتقربك من الله اكثر.

يشكره كثيرا قبل الوقوف والذهاب لا يعلم لماذا وقف أهي الفرحة بإيجاد فرصة جديدة؟

لا يعلم سوى إنه أراد التحرك.

****

مرتديا لباس أبيض منقرش بعلامات زرقاء، قصير وغير مرتدي بأسفله شيء، نائما بجسده بالكامل على السرير، مجتمع حوله عائله بالكامل، يظهر على الجميع ملامح الخوف والذعر عليه.

الدكتور يحذره امامهم بأن يبتعد عن اي ارهاق، اما هو فيجد نفسه وحيدا كاد ان يموت، كم كان غبيا عندما ضحي بزوجاته ولم يكن قادرا على الحفاظ عليهن.



شعر بأنه كالطفل الذي كاد ان يختطفه الغريب التي حذرته والدته منه مرارا وتكرارا، وها هو الموت كاد ان ينجح ان يفعل ذلك معه، نفس الخوف الذي ينتابك مع الغريب انتابه مع الموت، ولكن وسط الخوف كان هناك ألفة غريبة لم يعهدها من قبل في أي شيء طيلة عمره.

يعاد شريط حياته أمامه، يشعر بكل شيء حدث وكانها ثواني معدودات، ايها العمر الذي تسير مثل القطار ولا تسمح لنا بان نتوقف في محطات لنستريح، كل شيء مقدر من يركب معنا ومن يغادرك، والان وقد اقتربت المحطة النهائية ماذا انت فاعل بي؟

هل ذلك ما كنت اريده؟ هل اوصلتني لمحطتي التي كنت اريد؟

ايها القطار توقف عن التذمر وأكمل رحلتلك فلم يعد فارقا معي سوى ان يستريح عقلي عما به من افكار تقتل فيه تلك الحصون التي بناها ليريح نفسه.

لم يعد هناك سلام بداخلي كل شيء يسير في درب الحياة مهدد بسراب الحلم الذي لم يتحقق ولا احد يعلم بإذا كان مجرد كابوسا.

****

مرتديا بنطالا واسعا، وقميصا يظهر بعض من بطنه المتقدمه امامه سنتيمرات، ممسكا بيده ملفا به شهادة الابتدائية متحسرا على الاعدادية التي لم يفلح بأن يتعداها بعد محاولا عديدة من الفشل ذهب ليتعلم شيء يستطيع ان يكسب به ذهبا، وتحول الذهب لخشب متحطم في إحدى الورش، توقف امام ذلك المبنى العتيق الأثري القريب من وسط البلد ، مبنى وزارة الاوقاف، ليجد طابورا كبير جدا واقفين ليتقدموا للوظيفة، إنها وظيفة حكومية مرتب ثابت، ومستقبل بنهاية الخدمة.

ينظر ليداه ويفكر هل يمكن لتلك الايدي ان تنظف الحمامات بعد ما كانت تصنع براويز تضع بداخلها اكبر اللوحات، وصور الفنانات، كملك فقد تاجه في جلسة قمار، فذهب ليبحث عن وظيفة، إنه شعور بالاحباط والفشل والضياع ذلك ما يشعر به.

كيف كانت قراراته بتلك الحماقة ليفعل ذلك، ومع ذلك قرر المسير داخل بهو الوزارة بعد عدة ساعات من التوقف في الطابور الذي يتحرك ببطء شديد.

أنهم الالاف من الشباب يقفون يريدون ان يأمنوا مستقبلهم، وهو ليس الا واحد منهم لا يريد سوى ان يجد نفسه، كافرا بذاته، ملحدا بقدراته، في اكثر اللحظات ضياعا، قد مر توا بملحمة إن عرفت لكتبت في التاريخ محاطا اسمه بالاسود علامة على الضياع الذي تسببه لنفسه ولغيره.

كان قد قسم الطوابير لعدة صفوف بين من متعلم وقادر على القرأة، ومن امي ولا يعرف، كانوا يصنفون على حسب العلم، إنهم لا يريدون سوى قاريء يسيتطيع ان يؤذن، ان ينظف، ان يمضي على العهدة، إنه عمل وليس بمحو للأمية.

مرت ساعات والصف لا يتحرك الا بعض الخطوات كل عشر دقائق او اكثر، لا شيء يحدث، الجميع مل من الحديث والكلام الذي لا يخرج سوا لقتل الوقت، ينظر في ساعته ليجد إن الساعة تكاد ان تدق الثانية ظهرا.



وسيرحل الجميع ولن يقدر على تقديم عل تلك المستندات لهم ليحجز دورا للعمل، أحقا لن يفز بتلك الوظيفة؟ خرج احدهم ليرفع صوته بأن العمل اليوم قد انتهى ومن يريد التقدم ينتظر يومين ويأتي قد يحتاجون لعدد اخر في تلك الفترة بعد حصر ما تم تقديمه لتلك الوظيفة الشاغرة.

يخرج من الصف غاضبا يكاد ان يقطع ذلك الملف، ولكن أحدهم يستوقفه قائلا:

- جمال؟!
- اه
- مش انت اللي بعتك الشيخ علشان تتوظف
- اه
- طب تعالى تعالي بسرعة عمال ادور عليك من الصبح

يأخذ ويصعد لاعلى حيث مكاتب كثير في ممر طويل يشير إلى احد المكاتب قائلا:

- مكتب استاذة سهير هناك قلها بس انك من طرف استاذ ياسر بتاع الارشيف وهي هتقوم بالواجب.

يهز رأسه ويتحرك ويدخل المكتب ليجد سيدة تجهز المكتب للرحيل فيقول بادرا بالكلام حتى لا توقفه عن الحديث قائلا:

- انا جاي من طرف الاستاذ ياسر بتاع الارشيف

لا يعلم لماذا توقفت عن الحركة نظرت له بتمعن شديد تفرض يداها وفاها مفتوح، ثم تستلم الملف قائلة:

- عدي عليا الحد علشان تعرف الجامع اللي هتخدم فيه

يخرج متعجبا من ذلك الرد ويذهب سعيدا بأنه استطاع ان يظفر بها، يحمد الله بذلك، ومقررا ان يذهب للحسين ليصل ويدعو الله متمنيا بان يقابل الشيخ هناك ليشكره عما فعله.

ذهب بالفعل ليصلي هناك العصر ويمكث قليلا، ومن ثم لاحظ أحدهم يرتدي نفس ذات الجلباب ليذهب مسرعا له ويمسك يده ويجده بأنه شخصا أخر، ويبدأ بسرد تفاصيل شكله.

يعتقد في البداية ذلك الرجل بانه مجذوب، او في البداية فقط ولكن يوقفه جمال عما يدور في عقله ويبدأ يسرد عليه الحكاية بالكامل.

وعندما وصل لمقابلة الشيخ أذن المغرب فطلب الرجل بأن يقوموا ليصلوا ومن ثم يكملوا الحديث.

وبعد ان انتهوا من الصلاة جلس معه الرجل قائلا:

- إن الله يرسل من يحب لمن يحبه، فلا تنزع الايمان من قلبك يا بني، كل شيء سيحدث لسبب ما.

تمعن جمال في ذلك الكلام قليلا ثم ذهب ليعود لمنزله وهو غير مدرك لما يحدث له هل تقبل الله توبته بتلك السرعة ؟ بالطبع يتمنى ذلك ولكنه غير مدرك بعد ما يحدث حوله.

****



يجلس في صالونه المذهب، بينما تخرج سيدة تظهر عليها معالم الجد، فيتسائل بطريقة مجنونة نوعا ما:

- فين بسينة ؟

نظرت له بتجاهل وجلست بهدوء ومن ثم بدأت تجهز نفسها للكلام:

- بص يا ابني علشان نبقا على نور انا جهزتلكم الاوضة اللي فوق علشان تتجوزوا فيها احنا قررنا انك هتعيش معانا هنا، مراتك حامل ولازم ناخد بالنا منها، ونغذيها كويس لان في الحقيقة في بيتك مش هتعرف تهتموا وتغذوها كويس

كان ينظر إليها من الصدمة لم تخرج الكلمات من فاهه، أيمكن ان يضحي بعائلته، بوالدته، ولكن في الحقيقة استطاعت تلك السيدة بالتلاعب في عقله بطريقه جعلته يقف مستأذنا وكأنه يطلب وقتا لتحضر نفسها، لم تظهر عليه اي مظاهر من الغضب بل انه بدأ بالفعل بصنع الاحاديث التي ستقنع والدته بها.

عندما دخل على والدته كانت تنظر له بتفحص، كانت تعلم جيدا ماذا يريد؟ إنه ابنها الصغير مهما كبر فإنه لا يزال طفلها الصغير بادرته بسؤالها:

- فين مراتك مجتش معاك ليه؟

تفاجيء واتصدم من سؤالها اربك كل حصونه وخطوطه الدفاعية، بدأ يلملم نفسه مما حدث، بعض التعلثم الناتج عن التوتر جعله في موقف ضعيف بدأ يتصاعد صوته بطريقة هيسيترية:

- عادي بترتاح عند أمها

تنظر له أمه بنظرة فيها شك فيجلس بجانبها ويتحدث معها بهدوء يريد اقناعها بما لم يقتنع به:

- انا همشي من البيت هروح اقعد معاهم في البيت هي محتاج مصاريف وغذى، وانا طول اليوم في الشغل وهي محتاجة تستريح وسط أهلها، وعلى الاقل متتعبيش معاها

تهز أمه رأسه رافضة هذا الكلام من ثم تقول:

- بص يا بني انا بعد ما ابوكم مات وانا شايلاكم ومتحملة كل حاجة في البيت، انا كنت متوقعة لما تقف على رجليك هتساعدنا في البيت بس انت زي ابوك مبتشفش غير نفسك وبس، انت عايز تروح هناك علشان توفر القرشين بتوعي وكمان توفر القرشين الزيادة بتوع مراتك على الافيون.. ولا بتحسب اني مش عارفة كل اللي انت بتعمله.

يمتعض ويغضب ويقف متبعدا عنها لتقول له الكلمات الاخيرة قبل ان يخرج من الباب

- روح لمراتك ساعدها وربنا يباركلك في ذريتك بس عايزة اقولك ان اختك نيفين ارجل منك هي اللي شايلة البيت وبتجهز نفسها مش زيك، يلا امشي مش عايزة اشوف وشك تاني هنا.

يخرج من الغرفة باكيا لا يعلم إلى اين يذهب احقا سيترك والدته هكذا؟



كل شيء أصبح يحيره حتى قراراته التي يأخذها أصبحت متسرعة غير مفهومة حقا أنه أناني جدا ولا يمكن ان يترك والدته هكذا، الحيرة تأكله من الداخل، أصبح يشعر بغربة كبيرة، أصبح غريب بداخل منزله كم هو صعب ذلك الشعور.

يحل الصمت الطويل بينما يضع يده على رأسه غير عالم بما يفعل.

****

جلس امام القهوة منتظر صديقه في العمل، حيث قال له ان يقابله قبيل العشاء حتى يأتي بالاخبار السعيدة، لم يتأخر عليه بل أنه اتي تقريبا في نفس الميعاد تقريبا لأول مرة في تاريخه، جلسا ليشربا شاي، قال له صديقه بدون مقدمات:

- لقيت بنت بسم الله ما شاء ما خلق، زي القمر، اما على الاخلاق فمش بيطلع منها العيبة أبدا

نظر له بتعجب وفرحة لا يعرف مصدرها، وافق تماما، كل شيء يسير في درب السعادة، إنه يراها جيدا يعرفها فقد ذاقها كثيرا في بداية الورشة ومع تلك السيدة، ولكن تلك الفرحة مليئة بالطمأنينة التي لم يعهدها.

فلم تتعدى إلا ايام قليلة إلا أخذ قرار بإتمام تلك الزيجة، بل ذهب هناك ومعه عائلته منتظرين أن يتم الحديث أمام العروس التي خرجت حامله صينية مرتدية ذلك الفستان القصير فوق الركبة بسنتيمترات قليلة يظهر جمالها البراق الذي يجذبه جدا لها، يفكر كم هو جميل ذلك الشعور بالحلال.

يتذكر كل ما مر به من مشاعر في السنوات الأخيرة خصوصا تلك السيدة التي أفترست قوته وماله حتى أصبح لا يعرف سبيل للرجوع على ما كان عليه قبلها.

اتفقوا كل شيء وكان صوت الفرحة ينتشر في كل الشوارع المجاورة لقد حان الوقت ليقطف زهرة من بستان، ليكون رحيقها لوحده فقط.

كل شيء يدعو بأن المستقبل سيكون باهر وقوي لا محال.

****

يدخل وعينيه متورمتان مليئتان بدموع كثيرة احتبست بفعل الضغط والخوف، احتبس بسبب رجولته التي تشوهت امام نفسه أكثر من مرة، يجري على حضن أمه يلقي نفسه بداخله قائلا:

- ده مات يا امي اللي بعد عنك بسببه.. مات وعرفت يعني ايه ضنى

لم تفعل شيء الا انها كانت تعتصره بداخلها وهي تبكي بحرقة أكثر منه، لقد مات حفيدها دون ان تراه حتى، وحتى إبنها لا يزال طفلها الصغير كل شيء يدعو للخوف والحزن، الشجن لا يريد ان يهرب من قلب طفلها الكبير.

كلما حاولت إفراحه كان الشجن ينصب له فخا جديد ليقع برجله بداخله، وتلك المرة كان الفخ داخل بئر مظلم.

كل شيء تدمر معه، ولابد من ان يبدأ بداية جديدة، كم بداية قد بدأها، كم في العمر ليبدا كل فترة تلك البداية.



ولماذا هو دائما؟ كيف أخطأ؟ وما هي المعصية التي لم يتوب عليه تجعل كل شيء أما ضنكا؟

أسئلة كثيرة تخترق أفكارها ولكن لا يمكن الاجابة عليها فصاحب الإجابات في حضنها خائفا متضرعا، تائب عن عصيانه لها.

****

يوم الزفاف..

الجميع سعيد ويرقص ويتراقص على أنغام عدوية ومحمد فوزي، الفرحة تجتاح عالمه من جديد، كل شيء يسير في دربه الصحيح لأول مرة من زمن.

يحاول ألا يفكر في شيء ولكن تقتحم تفكيره تلك الفكرة الخبيثة التي تتحدث عن قوته وقدرته وإحتياجه الدائم للأفيون.

فلم تكن السيدة الاولى في حياته وقد مر زمن طويل على اخر علاقة، ولكنها كانت علاقة غير مكتملة، كان الافيون هو الموجه والمسيطر على كل شيء، واليوم يجد نفسه وحيدا كفارس بلا سيف او فرس، سائر على رجله يواجه العدو اعزل منعزل عن كل جنوده لينقذوه.

أصبح يحارب لوحده، يشعر كم هو ضعيف، كفأر امسكه قط، كمركب صيد صغير يواجه تسونامي، كطائرة ورقية تواجه غيمة سوداء، كل شيء يدعو للخوف مما سيواجه، لابد أن يحدث سيء قبل المواجهة شيء ما سينقذه في اللحظة الاخيرة.

دخل إلى دورة المياه ملقي من خلفه كل ملابسه ليغرق جسده بماء بارد محاولا تجاهل كل الخوف الذي يدير بعقله، متمنيا ان يجد حلا مع ان الفرح اليوم لن يتعدى سوى 12 ساعة للمواجهة الكبرى.

ولكنه يتذكر اين وضع العلبة التي بها الافيون يخرج مسرعا يفتش عنها ليجدها شيء ما يذكره بوعده للشيخ ولكن جزء اخر امسك بالعلبة كأنها المعجزة التي ستنقذه مما سيواجه.

****

في ابعد مكان في الغرفة يتم دق الباب بقوة يكاد ان يحطم الباب، يتحدثون بالخارج انه لابد ان يكون هناك احد ليقوم امناء الشرطة بواجبهم ورد القايمة للزوجة، الاطفال يريدون ان يصرخوا بينما الجدة ممسكة بافواه احفادها.

الجميع لابد ان يصمت، لابد ان يحارب الجميع، سيسرقون كل شيء كما سرقوا ابنها من قبل والحفيد الذي ذهب لله.

تنتظر حتي أتي ابنها يفتح الباب مبشرهم بأنهم ذهبوا ليرجعوا لحياتهم الطبيعية ولكن الخوف اصبح هو المسيطر الاول والاخير على حياتهم دائما هناك من يراقب السلم حتى إذا جاءوا أحدهم غفلة.

****

اصبح الصامت الوحيد الذي لا يفعل شيء سوى الصلاة وقرأة الكتب الدينية المنتشرة على الارصفة، لتلك العناوين الجاذبة.



"أحذر عذاب القبر"

"كيف تهرب من جهنم ؟"

"كيف تكون اكثر رزق؟"

والكثير من العناوين الجاذبة للانظار التي تجعل كل الزائرين يقفون امام تلك العناوين باحثين بنظرهم للاخرة.

أصبح احد هؤلاء الذين لا يفعلون شيء سوا الصلاة من اجل الاخرة كل شيء تغير بعد موت أبنه الاول والوحيد كل شيء اصبح يسير عكس الدرب.

انهارت كل احلامه امام عينه، الورشة انهارت والابن مات، ماذا بعد ؟

أصبح يعيش في كهف مليء بالظلام، لا يرى اي امل من الخروج منه كل شيء منهار كل شيء يسير نحو الهاوية بلا رجعة.

وفي وسط ظلام الغرفة تدخل أمه تحنو عليه وتجذبه لحضنها تبدأ تتكلم معه بهدوء وتهديء من روعه، تشعر به وبألم فقدان الابن.

تبدا تعرض عليه شيء ما يجعله يصمت، قلبه يهدأ ليدق السلام على قلبه، هناك امل ولابد ان يحاول، لابد ان يخترق صفوف الخوف بشجاعة لأنه في النهاية مجرد خوف.

لا يعلم لماذا تركها تتحدث عن تلك العروس الجديدة التي لا تريد شيء سوى ان تعيش في جنف رجل يستطيع ان يحميها من ظلمات الحياة.

شخص يهتم من اجلها، يعطيها سببا في الحياة.

هز راسه موافقا ففرحت الام فرحة كأنها رأته لأول مرة، كمن بعث فيه الحياة مجددا.

****

إنه العريس، هكذا يقول سيقال عنه اليوم فلابد من حلاقة ذقنه التي طالت منذ فترة، لابد ان يرتدي تلك البدلة ايضا، انها بدلة الفرح الاول، حتى الفقر لا يسمح له بأن ينسى كل ذكرياته الأليمة التي حدثت .

أمسك بفرشاة الشعر وبدا يضبط قصة الشعر جيدا، لابد ان يجعل شكله افضل، تحسس جيبه الاعلى مجددا للمرة الالف تقريبا ليطمئن قلبه بأن العلبة متواجدة فيها، متفائلا بانها ستكون بداية جديدة له، سيفعل كل شيء بشكل صحيح يريد ان يكون مثل اي رجل متزوج ولديه عائلة بالكامل يفعل المستحيل ليحميها.

ولأول مرة يشعر بأن السلام قد حل على الحرب التي يواجهها يوميا بداخله، رفعت الراية البيضاء بداخله واستسلم قلبه.

****

شيء ما ظهر كطيف أمامه بجلبابه الأبيض وعمامته الخضراء، إنه يعرفهم جيدا، بالتأكيد إنه هو "الشيخ"، وقف متحيرا مفكرا فيما رأى أحقا قد رأى ذلك الشيخ مجددا؟



يعرف ولا يصدق عينيه، وقف ليناذي عليه بأسم "الشيخ"، الجميع أصبح ينظر إليه كمجنون، وكأ لم يكن هناك شيخ ليلبي ندائه.

لم ينظر إليه، لم يتوقف، لم يستطيع حتى ملاحقته، كيف هرب من بين يديه بعد كل ذلك الزمن الذي مر عليه.

يتذكر كيف تم توظيفه؟ والان قد سلم مفاتيح العهدة لأحد الشباب ليكمل ما بدأه الاخرين، الرويتن القاتل الذي اعتاد على القيام به.

يتذكر عندما ذهب لأستاذة سهير وكان الفضول يسيطر على عقله كان يريد ان يتسائل عن هوية استاذ ياسر، ابتسمت قائله له:

- أصله جالي في الحلم وقالي انه هيجي حد من طرفه ولازم اساعده، الله يرحمه

اوقفت الجملة الاخيرة عقله عن التفكير لوهلة، من ثم بدأ يستوعب الامر مجددا، طلبت منه الجلوس مناديا بأسم البركة وكأنه تحول ليصبح أحد هؤلاء الصالحين وهو يعلم بأنه لن يكون مثلهم قط.

كانت في تلك الفترة اخر لقاء جمع بينهم، اللقاء الذي طلب منه ان يذهب للوزارة الاوقاف، منذ ذلك الحين لم يراه مجددا سوى اليوم

لا يعلم لماذا اليوم ؟

مع ذلك انه يشعر بضيق شديد بسبب بأنهم لم يتحدثوا شعر بأن الله رفض توبته مجددا.

****

يزدحم الفرح بكل من يريدون الفرحة بالعريس والعروسة، لم يكن فرحا بالمفهوم الطبيعي لم يكن سوا كتب الكتاب في إحدى المساجد.

يشعر باختناق كل فترة يتأكد بتواجد العلبة، يشعر بخوف ينتابه لأول مرة، لا يعلم لماذا ولكن قلبه يخفق بسرعة كبيرة غير معتادة جعلته غاضب وخائف.

كل شيء يثير السخرية ولكن مع ذلك يشعر للوهلة الاولي بالراحة التي لم يشعر بها خلال فترات طويله من عمره، فودع أفكاره وترك نفسه لموسيقى ليتراقص جسده محاولا إلقاء تلك الأفكار من نافذة الهروب الاضطراري.

وبعد الانتهاء ذهبوا جميعا للمنزل حيث لابد ان يجمع بها، ولكنه أحتاج للهدوء قبل أن يذهبوا لبيتهم فقرر الذهاب للنيل طالبا ذلك من السائق ان يذهب لأقرب كورنيش ليجلسوا قليلا، يتحدثوا عما سيكون في المستقبل، يضع قواعده جميعا.

****

يقف الجميع في دهشة هناك عراك داخل المسجد بين إثنين يحاولون منعهم من العراك حتي يتوقف احدهم عندما يرى الدماء في وجه الاخر.

يبدأوا في فك التلاحم بينهم ومن ثم يتحدثون بصوت عالي:

- أنت حرامي



- أنا مسرقتكش
- بس أنت عارف إنك بتاخد حق أكتر من حقك
- عمري ما خد حق أكثر من حقي

يتدخل جمال ويسحب الاثنين في وسط ذهول الجميع مما يحدث وأي سرقة يتحدثون عنها ؟ لا أحد يعلم شيء.

كان أحد المتعاركين من اهل المنطقة الذين يواظبون على الصلاة فأصبح معه نسخة من مفاتيح المسجد، ولذلك أصبح يشاركهم في تقسيمة الصناديق، والاخر زميل جمال في العمل.

تسائل جمال عما يحدث فيقول بأنهم يتعاركون من اجل القسمة فينظر لهم جمال قائلا:

- عايزين الناس تعرف احنا بنعمل ايه ؟ انا اللي بدأت الموضوع ده وانا اللي ممكن انهيه، الناس متعرفش ان اللي بيشتغل على زكاة يقدر يستفاد منها ليه جزء منها، محدش يعرف قد ايه احنا بنتعب هنا.

ينظرون له بأسف ويسلما على بعض، ولكنه رحل دون يزيد أي كلمة.

يجلس بجانب العمود، ينظر للسقف ويتسائل هل كان ذلك الكلام لهم ام له ؟

وكأنه لم يكن يتحدث سوى لنفسه كان يريد أن يثبت نفسه على كل ما يفعله لا يعلم لماذا يتذكر كلما أخطأ وهده لذلك الشيخ بالتوبة ؟

****

بعد ان خرج من المستشفى استضفتوا اخته ليعيش معها بعض الأيام حتى يستطيع أن يعيش حياته بشكل طبيعي.

لقد أصبح رجل عجوز غير قادر على فعل شيء، غير قادر على خدمة نفسه حتى، كل شيء ينهار في حياته أو أصبح منهار بالفعل.

وعندما ذهب لأخته مكث أسبوعين كانوا كافيين بان يظهروا له بأن الدنيا لا تنسى شيء.

كانت في الليل عندما شعر بحركات ززوج اخته يخرج ليستحم، كان يلاحظه أنه رجل لم يلمس سيدة منذ زمن.

وأصبح جليس الأريكة لا يتحرك منها سوى للذهاب للحمام، او القيام ليأكل لا شيء أخر.

ولكن الزوج أصبح يلاحظ منه أشياء تثير تقززه، كل شيء مقزز أصبح يفعلها خصوصا أنه وجده يبصق على السجداة كسلا وليس تعبا على السجادة كانت النهاية بالنسبة له.

قرر في يوم الغد أن يغادر البيت بلا رجعة، وهم ياكلون لاغداء قال له:

- يا جمال انت قادر دلوقت تستغل، ريح يومين قبل ما تنزل الشغل، ولو أحتجت أي حاجة كلمني هتلاقيني عندك.

صمت جمال وكأنه كان يعلم بانه هناك شيء مريب يخطط عليه، ولكنه هز {اسه ايجابا بذلك ولم يكمل غداءه بالكامل ورحل لمنزله العزيز ليكمل فيه رحلته الطويلة، ولكن بعدما حدث ذلك وأصبح هناك شيء ما يغضبه بداخله تجاه أخته.



****

جالسة أمام النافذة تنظر للسحاب الذي يسير ببطء على غير العادة، تسمع خطوات قدمه على الأرض تقترب من الباب، لقد أصبحت تعرف خطوات رجله جيدا، تقف باسمه بخجل منتظرة زوجها العزيز، يدخل الغرفة ينظر حوله فيلاحظ الأطباق على على الطاولة وعليها بقايا الطعام.

ينظر إليها بشبه غضب قائلا:

- هو المحروس كان هنا؟
- قصدك على مين ؟
- هو في غيره أخوكي !!
- أنت عارف كويس اني ماليش غيره يعتبر انا اللي مربياه
- طيب طيب أنا داخل أستحم لما أخرج نشوف الكلام ده

يدخل إلى الحمام بينما تجلس مصدومة من رد فعله، كيف يجرأ أن يتحدث عن أخاها بتلك الطريقة ألا يكفي إنها تتحمل تلك المعيشة مع رجل لا يعرف شيء سوى الجنس والطعام، ألا يعلم ما يمثله أخيها بالنسبة إليها قد ضاقت ذرعا من كل شيء.

لقد خافت من كل شيء، تخاف الآن على إبنها الصغير بأن يكبر ويكن نسخة كأبيه، بدأت تتأمل المستقبل بهدوء كعادتها، دائما تخبيء مشاعرها وراء الهدوء، نظرت من الشرفة وابتسامة بسيطة نحو الفراغ شعرت براحة كبيرة.

أكثر الأشياء قد ترعبك نظرة أمرأة للفراغ في صمت تام وهدوء يجعلك تخاف مما تفكر فيه، قد تقتلك بعد لحظات قليله من ذاك الهدوء، تقتلك وتضعك في أكياس وتنشر أجزاء جسدك في أرجاء الدولة بالكامل، ولا يمكن ايجادك، فلن يكون لك وجود سوى في أمعاء القطط والكلاب.

تستيقظ من صمتها عندما تستمع لفتح الباب يخرج طالبا الطعام الذي سرعان ما يتواجد على الطاولة، يجلس بجانبها تقترب منه وتطعمه في فمه بطريقة مثيره لكل شيء ومن ثم يبتسم محاولا تهدئة الأمور.

- أحنا عايشين على قدنا فملهاش لازمة أن أخوكي يجي كل شوية أحنا ربنا ساترها معانا علشان كده لسه عايشين.

تنظر له بنظره وكأنها تقول له إنها متفهمه كل شيء، ومن ثم تقول له:

- متقلقش عمري ما هعمل حاجة تضايقك.. أنت رجلي وسندي حتى النهاردة عملالك مفاجأة هلبسلك القميص الأسود.

يبتسم إبتسامة الذئب الذي وجد فريسته، يضع يده على جيبه الأيمن فيجد العلبة التي دائما ما تحفظه من تلك المواقف، إنها ستكون ليله سترجعه لما قبل أكثر من عشر سنوات إلى الوراء أو أكثر عندما رأى أول أمرأة تفتح له أبواب ما بين الجحيمين، وتقحمه في عالم الشبق.

تسحب الأطباق في هدوء وهو ينظر لها وهي تسير في خطى ثابتة نحو المطبخ، وعندما إبتعدت فتح العلبة ولكنه أكتشف إنها فارغة.



أصبح يلعن النسيان، كيف ينسى أهم شيء في حياته؟ لا يتذكر بأنه يضع راتبه كله في تلك العلبة وما تبقى من الصندوق يعيش به في المنزل.

يقف متحيرآ أيعقل بأنها عندما تطلبه لا يلبي النداء، أيعقل؟

لا سيفعل كما كان يفعل منذ زمن حتى إذا ضعيفا فليتحجج بإرهاقه في العمل، ولكنه لن يرفض طلبها أبدا.

مر الوقت سريعا وهي تحضر نفسا لليه ليس لها مثيل أم هو فغير واثق في ذاته مهتز كل فترة يريد يفتح العلبة يحسس بداخلها ثم يمتص إصبعه لعله يأخذ جرعة ولو بسيطة تساعده على الامتحان العسير الذي سيدخله الآن.

يداعب أظافره من حين لآخر ينظر للساعة فيقرر أن ينزل يصلي العشاء ويذهب لصاحبه متسائلا وباحثا عن الأفيون فلا يجد فقد قال له صاحبه بأن من الصعب الإتيان به خلال تلك الفترة العصيبة فالداخلية ترسل كلابها في الحارات لتستصئل كل المخدرات من البلد.

ينتظر قليلا ثم يقرر أن يرجع من أجل تلك الليلة لن يضيعها بعد كل ذلك، سيذهب ليعيش وليكن او لا يكن.

كانت في إنتظاره كملكات جمال، تنتظره هادئة كعادتها، يدخل إليها بقلب خائف كقائد جيش منهزم يقابل شعبه، كمهاجم شاب أمام حارس مرمى ذو خبرة كبيرة، كتلميذ مرض قبل ليلة الامتحان.

يقترب منها ليلتحما في ملحمة كبرى تكتب في تاريخ معاركه السابقة، لم يكن لديه جيش داعم تلك المرة، هو فقط بجيشه المتهالك، لم تكن معركة عادي، كانت حربا كحروب الفرس والروم، كحرب المائة عام، طالت ولم تنتهي كما يحدث في الغالب.

أهتزت العروش لها كما لم يحدث من قبل، كانت ليلة مثالية بكل معاني الكلمة، كل شيء كان مثالي.

لم ينم تلك الليلة من كثرة السعادة، تذكر كل النساء ووجد إنها ليست مثلهن في شيء قرر ان يصحح كل أخطائه يوفر مال الافيون ليجعلها اكثر سعادة.

وهي نائمة بجانبه تلاطفه قالت له أيمكن الذهاب لأهلي؟

هز رأسه إيجابا غير قادر على الرفض

****

ينزل في محطة نجيب مقررا أن يسير للبيت مشيا، بالنسبة لسنه ولكن لابد أن يفعل ذلك، فلقد طالت ذكرياته وطال تفكيره فيما مضى.

ولم يعد شيء كما كان ولن يعود الزمان، يسير بخطى بطيئة يشعر بأن الزمن يسرق من تحت قدميه، الازدحام يزداد يوما عن يوم، والبشر يصعبون من روتين الحياة وكأننا نحارب من أجل ضمان مكان في ذلك الكون العفن.

كل شيء أصبح باهت الرؤية وكأن الضباب أصابه مره واحده لا يعلم أعيناه أصابها الضباب أم إنه قد إنزاح عنها.



وأصبح للمرة الأولى يرى الأشياء بوضوح، أو يرى أن كل شيء فعله يعاد إليه ولكن بصيغ مختلفة، كل طعنه ردت إليه أقوى، كل فعل وكل كلمة لم يكن يصدق إن كل شيء سلف ودين.

يعيد حساباته كلها وكأنها شريط فيديو رديء الصنع.

كل شيء في حياته ينتهي ولم يقدم شيء مميز، كل شيء كانت بالنسبه له طعام وإشباع لشهواته، غرائزه كانت تتحكم في قراراته ولكن القرارات الحاسمة، كانت دوما تعاني من أيدي مرتعشة، أيدي أرهقها الأفيون والخوف والأنانية.

سحبه التفكير لمناطق لم يكن وصل إليها قبلا، وتسحبه رجليه إلى أماكن قد أعتاد السير فيها.

****

بعد يوم من ذهابها لأهلها وعقله الذي أصبح يجن عندما يفكر ما حدث بينهم تلك الليلة.

كل شيء بالنسبة إليه أصبح مثالي ولكن اليوم أصبح أسبوع مقرر أن يذهب إليها، حتى إذا كانت قد حزنت قليلا عى قراره فسوف يذهب ليرضيها، الأهم أ تكون لياليه القادمه مثالية، يفكر جديا في الرجوع للعمل في البراويز.

لا يهم أي شيء سوى الليلة المثالية إنها أكثر جمالا من طعم الخمر، وأكثر سكرا منه، كلما تذكر تلك الليلة يفقد عقله خصوصا إنها ليست بجانبه.

سبعة أيام بلياليي دون الاستمتاع بها، ذهب لمحل الفواكه وأشترى بعض الفواكه وصعد لأهلها، لم يلاحظ إنها المرة الأولى التي يدخل بهدية لأهلها.

يدلف للشقة حيث يتواجد الأهل يطالبونه بدون مقدمات أن يطلقها فلم تعد بالحاجة إليه، لم يكن مصدق ينظر إلي عيونها ولا يجد سوى البرود والهدوء المعتاد.

فقد قررت أن تعمل وتصرف على نفسها وتساعد في بيتها ولذلك قرروا للسماح لها بأن تجلس معهم.

كل شيء يصعق عقله جعله غير قادر على الكلام.

****

يخلع الجبيرة ويقرر النزول للعمل، ولكن من داخله يشعر بأنه اليوم الأخير له، أخته ردت له اخر قلم قد يتوقعوا، لم يكن يريد شيء سوى أن يخرج نفسه من تلك الحالة.

****

تسحبه رجليه إلى الحارة القديمة، حارة الورشة، حارة المراة التي سحبت رجليه للتهلكه، وكأن الحنين يجذبه للماضي.

****

صراخ وأصوات عالية تصرخ في أذانه بكلمة واحدة، طلقها وهو يقترب منها وكأنه لا يسمعهم متسائلا متعجبا وهو ينظر في عينيها:

"أنتي عايزة تتطلقي بجد؟



****

لقد مات والداه منذ زمن طويل، كل شيء ينتهي في لحظة، الموت بالنسبة له شيء صعب، فقد كل شيء أحبابه، أخيه، أمه، والداه.

****

ينادي عليه صاحب القهوة مسلما عليه بحرارة متحيرا ومتعجب من ألاعيب الزمن، وكيف كان عامل أكثر مهارة في البراويز ويداه تلتف في حرير.

اما هو فكان شاررد الذهن، ناظرا لنافذة أصبحت مغلقة والأتربة تغطيها.

****

تبكي وهي صارخة في وجهه:

" كل حاجة أنتهت.. أبننا مات.. وانت السبب"

الزمن يتوقف في تلك اللحظة وكل شيء يفقد معناه.

****

يذهب لعمله في الجامع وعندما أنتهى منه يذهب للمترو شارد الذهن خالي الوفاض

****

تضربه في صدره وتصرخ وهو لا يفعل شيء سوى الخوج من الشقة بعد أن طلقها، غير أسف، غير منتبه، غير قادر على فعل شيء لقد فقد أخر أماله بأن يكون لديه أبن يحمل أسمه، سند يعوضه عند شيبه.

*****

يقف أمام المعمل الخاص بالمخلل، ويدلف بداخله وكأنه يتذكر كم كانت جميلة ورشته، وينظر لصورة المعلم فيجدها بجانب صورة خاله ذات البرواز الذهبي المصنوع بيديه.

يبتسم كيف لتلك الورشة الصغية أن تترك أثرا لتلك اللحظة ؟

ينظر ليده المرتعشة فيمسكها ويخرج وهو ينظر نظره خاطفة للشقة التي دمرته، والتي كانت تحتوي عى أجمل لحظات حياته أيضا فيلاحظ بأنه كل شيء يرتعش، وكأن رعشة يده جعلت بكل شيء غير ثابت تحت قدميه جعلت الارض ايضا تهتز.

يقع على الأرض بعد أن أى شريط حياته بالكامل يمر أمامه عينيه، وسط إزدحام ورجال كثيرة تحيط به وأصوات عديدة تهدأ تدريجيا مع الوقت، وتقل القدرة على الرؤية تدريجيا ويستمع لكلمة وحيدة يستمعها جيدا..

"بابا وحشتنا"

- تمت –